ثورة الشيخ عز الدين القسام في فلسطين سنة 1935م

بقلم
أ/ محمد عبد الرؤوف ثامر
قسم العلوم الإنسانية ـ جامعة الوادي ـ الجزائر

ملخص

تتناول هذه الدراسة حياة الشيخ عز الدين القسام وجهاده في فلسطين منذ عام 1921، ومدى تأثير ثورته سنة 1935 على مختلف القيادات الفلسطينية، وكذا رد فعل هذه القيادات على ثورته.

Resumé:

Cette étude traite la vie du cheikh Izz al-Din al-Qassam et son Djihad en Palestine depuis 1921. Cet étude aborde également l'impact de sa révolution de 1935 à travers les différents dirigeants palestiniens, ainsi que la réaction de ces dirigeants sur sa révolution.

مقدمة

عرفت فلسطين خلال عقد الثلاثينات عدة ثورات وانتفاضات شعبية ضد سياسة حكومة الانتداب البريطانية الداعمة للحركة الصهيونية، هذه الأخيرة التي تسعى لاسترداد أرض فلسطين على حد زعمهم، وإقامة الوطن القومي اليودي على تلك الأرض.

لعل من ابرز تلك الثورات تلك التي قادها الشيخ عز الدين القسام سنة 1935، بعد قدومه إلى فلسطين سنة 1921، فارا من حكومة الانتداب الفرنسية التي حكمت عليه بالإعدام بسبب رفضه لوجودها في سوريا، ولما كانت روح الجهاد تتقد في ضميره لم يرض بالاستسلام بل أعلن الثورة من جديد في فلسطين.

سأخصص هذه الدراسة لهذه الثورة، من خلال ظروفها وأسبابها وأبعادها الفكرية

والإيديولوجية وآثارها على النضال الفلسطيني، مستعرضا النقاط التالية:

1- التعريف بعز الدين القسام.

2- قدومه إلى فلسطين.

3- الإعداد للثورة.

4- إعلان الثورة.

5- موقف القيادة الفلسطينية من القسام وثورته.

6- الخاتمة.

أولا: التعريف بعز الدين القسام: (المولد والنشأة):

هو عز الدين عبد القادر مصطفى يوسف محمد القسام ولد في جبلة قضاء مدينة اللاذقية السورية، سنة 1882[1]، والده الشيخ عبد القادر مصطفى القسام من المشتغلين بالتصوف وعلوم الشريعة، وأمه حليمة قصاب «من آل نور الله الكرام حملة العلم ومصابيح الهدى في بلاد الشام»[2] . يتصل نسب الأسرة بالرسول الأعظم ﷺ[3] .

نشأ في أسرة متدينة (آل القسام)، متخصصة في الفقه والشريعة[4] متوسطة الحال، بعيدة عن زعامة الملاك الكبار ونفوذ العائلات التجارية، وكانت بيئته مثالا نموذجيا للتناقض بين كبار الملاك والتجار[5].

لما بلغ سن الرابعة عشر من عمره سنة 1896 غادر إلى القاهرة للدراسة والتكوين في الأزهر الشريف، وتتلمذ على يد الشيخ محمد عبده[6].

وقد سمحت له فترة دراسته في الأزهر البالغة عشر سنوات[7]، بالأخذ من الثقافة المعاصرة له بدرجة كبيرة، وجذّرت فيه التوجه الإسلامي الثوري.

وجد في دروس عصره، ما أبعده عن قيادة الأفندية والبكوات وأساليبهم في النضال. وهي الدروس التي طبقها في جهاده في سوريا ولبنان[8]. ففي مصر عرف القسام الاستعمار الغربي البريطاني وجها لوجه، ورأى هجوم المفكرين المتغربين على الإسلام فكراً وحضارة وتاريخاً، وعايش بنفسه الصراع الدائر بين هؤلاء وبين المفكرين المسلمين، وفيها عرف عن الحركة الصهيونية وليدة الاستعمار الغربي وربيبته[9]، وسمع عن تطلعاتها

وأطماعها بفلسطين[10].

بعد أن أتم دراسته بالأزهر رجع إلى قريته سنة 1904م، وهو أشدّ اقتناعا بأن الدور الذي يقوم به المسجد لا يجب أن يبقى محصورا في أداء العبادات فقط، وأن رسالة إمام المسجد المحصورة في فروض الصلاة والصوم والحج والزكاة يعد استكانة[11]، لا تخرج بالعالم الإسلامي من ظلماته ومشاكله المتعددة الجوانب. لذلك أخذ مكان والده في التدريس الذي لم يحصره في تحفيظ القرآن الكريم وتجويده، بل أخذ على عاتقه تدريس الأطفال والكبار الكتابة وقراءة العلوم الأخرى[12].

ثانيا: قدومه إلى فلسطين :

تذكر بعض المصادر تواريخ مختلفة لقدوم القسام إلى فلسطين، فقد ذكر عبد الوهاب الكيالي سنة 1921[13] كما ذكرت بيان الحوت، وعادل حسن غنيم على أن سنة 1922[14] هي السنة التي دخل فيها فلسطين، ولعل التاريخ الصحيح يقع قبل أواخر سنة 1920، بدليل أن الشيخ عز الدين قد وقّع على عريضة مقدَّمة من وجهاء وشخصيات مدينة حيفاً للمندوب السامي، تطالبه فيها بتعيين الحاج أمين الحسيني مفتيا للقدس، والعريضة مؤرخة في الخامس من أفريل عام 1921م، وكتب فوق اسم القسام وظيفته وهي «مدرس»، فإذا علمنا أنه تولى وظيفة التدريس بعد شهور من دخوله فلسطين فإنه يكون من الأرجح أن التاريخ الأدق هو قبل نهاية 1920[15].

استقر في مدينة حيفا حيث يذكر المؤرخون أن استقراره فيها يعود للخصوصيات التالية:

حيفا المدينة الجميلة الواقعة على شاطئ البحر المتوسط، وذات الخليج البحري الهام، كانت من ناحية المواصلات تتصل عن طريق البحر، بمدن لبنان وسوريا، وسهولة اتصالها بباقي مدن فلسطين، كما أنه فتح أمامها الحياة الحديثة فصارت مرسى كبيراً للسفن، ونمت تجارتها مع دمشق غيرها من المدن الهامة[16].

وكانت الميزة المهمة للمدينة بعدها عن نفوذ وصراع العائلات الكبرى في فلسطين الحسيني، النشاشيبي[17]. هذا الصراع الذي أضر كثيراً بمسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية

وأعاق اتحادها في وجه الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية. وقد ارتبط عمله في حيفا بوظائف التعليم في مدرسة البرج الإسلامية والإمامة والخطابة في مسجد الاستقلال، وريادة جمعية الشبان المسلمين، ووظيفة المأذون الشرعي . وهناك بدأ يعمل لتكوين تنظيمه الجهادي. ومنها احتك بالمجتمع معلّما ومرشدا وموجّها لكلّ من التقى بهم وداعيا إلى مجاهدة البريطانيين أولا، للتمكن من الوقوف في وجه الحركة الصهيونية، وبذلك يمكن اعتبار القسام رمزا للوعي والثورة والجهاد.

ثالثا: الإعداد للثورة:

القسام رمز للوعي:

لم يكن القسام طوال مراحل نضاله مجرد مقاتل صلب وعنيد فحسب، بل كان أيضًا مفكرًا واعيًا يتمتع برؤية ناضجة وواضحة على المستوى الاجتماعي والمستوى السياسي، حيث خاض نضالاً مستمرًا قبل أن يخرج للقتال. واعتقد القسام أن «الموجات الشعبية العاطفية العربية لن تضع حداً للعدوان المنظم على فلسطين»؛ فوضع مخططاً للعمل يعتمد على الأسس التالية:

1 – بريطانيا أصل الداء، وهي عدوّة العرب والإسلام.

2 – الحركة الصهيونية وليدة الاستعمار البريطاني: «فبريطانيا الرأس، والصهيونية الذنب، وإذا قطع الرأس فلن يبقى للذنب أي أثر. ومن مسؤوليات المجاهدين منع بيع الأراضي لليهود.

3 – الزعامات السياسية ليست على مستوى قيادة المعركة، فلا الأحزاب العائلية ولا الأوقاف بقادرة على إدارة دفّة الصراع.

4 – الثورة الشعبية المنظمة هي السبيل لمنع قيام دولة اليهود.

5 – يجب تعبئة الشعب عن طريق خطباء المساجد، وتدريب القادرين على حمل السلاح.

ولعلمه أن الثورة يجب أن تشمل كل فلسطين، لا شمالها فحسب؛ حاول القسام أن يقنع الحاج أمين بتعيينه واعظاً عاماً متنقلاً ليستطيع الاتصال مع سائر طبقات الشعب في المدن والقرى ومضارب البدو للإعداد للثورة، غير أن الحاج أمين اعتذر له قائلاً إننا نعمل لحلّ

القضية سياسياً[18].

القسام رمز للجهاد:

من الصعب طرح مفهوم الجهاد، والوعي إلا من خلال علاقة جدلية بين الاثنين، وبذلك كان من الصعب علينا أن نتحدث عن الوعي والثورة منفصلين. كان القسام عالمًا مؤمنًا لا يفتر من ترديد آيات الجهاد والآيات التي تدعو للنضال والتضحية، وداعيًا الناس كما يقول ديفيد هيرست في كتابه (البندقية وغصن الزيتون) إلى (محاكاة أبطال الإسلام في عهوده الأولى)، ويضيف هيرست (وأخذ يبحث في كل مكان يذهب إليه وعلى وجه الخصوص داخل المساجد عن حواريين له بين الرجال الورعين الذين يخشون الله). بدأ القسام في تقدير الموقف ومسح المنطقة التي سينطلق منها وكانت هذه المنطقة هي شمال فلسطين، حيث الظروف الموضوعية أكثر نضجًا رغم إيماننا أن الاقتصار على شمال فلسطين فقط كان نقطة ضعف، جعلت من السهل على العدو تطويق الحركة عسكريًا بعد ذلك [19].

ففي إطار التهيئة النفسية للثورة والجهاد خرج الشيخ القسام إلى قرى حيفا وجنين ،[20] وبعد ذلك أخذ في تنظيم الأفراد أو الطلائع السرية الأولى للتنظيم. وكان الفرد من هؤلاء يخضع لفترة من المراقبة

التنظيم السري لجماعة القسام :

من الراجح أن عصبة القسام السرية بدأت تنسج خيوطها الأساسية في عام 1925م، كما تذكر أغلب المصادر، ولكن العصبة لم تبدأ عملها العسكري بالتدريب على السلاح والقيام بعمليات جهادية إلاّ بعد عام 1929[21].

وكان الأسلوب الذي اتبعه القسام في تنظيم الأفراد يعتمد على مراقبته للمصلين وهو يخطب على المنبر، ثمّ يدعو بعد الصلاة من يتوسم به الخير لزيارته، وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل لإنقاذ فلسطين ضمن مجموعات سرية لا تزيد عن خمسة أنفار[22]، ثمّ اتسعت هذه المجموعات لتضم (9) أنفار[23]، وكان يشرف على الحلقة الواحدة نقيب يتولى القيادة والتوجيه[24]، يقتني العضو من أعضائها السلاح على حسابه الخاص، وأن يتبرّع بشيء قدر مستطاعه لهذه العصبة[25]. ويقول إبراهيم الشيخ خليل أحد أفراد العصبة

نقلا عن "بيان نويهض الحوت" :« بأن المال للثورة كان له مصدران؛ مصدر الاشتراك الشهري وكان جيدا، ومصدر التبرع التطوعي. ويأتي التبرع من أصدقاء القسام الذين كان الكثير منهم في وضع مالي جيد، فكان منهم المزارع الكبير والتاجر والمقاول، وهؤلاء كثيرا ما كانوا يتبرعون بأرباحهم بعد اكتفاء عائلاتهم. وبالإضافة إلى هذا كان المال يأتي أيضا تبرعا من بعض الأثرياء الوطنيين عن طريق الأصدقاء أيضا» (26).

ولما كانت الحركة الوطنية تنتهج طريقا رسمته الإدارة البريطانية وتقوم بالمطالبة بالحقوق بأساليب سميت بالطرق الشرعية أو المشروعة، كان لابد من منهج جديد في الجهاد، يعتمد على السرية ودقة اختيار الأنصار، فليس كل من أبدى حماسا للجهاد صالحا للانضمام إلى عضوية التنظيم، فكان القسام يصر على صفات وأخلاق في الرجل تؤهله أن يكون في تنظيم محاط بأعداء ماكرين ولعل أهمها :

- الاستعداد للطاعة والرغبة في التضحية في سبيل الله .
- لا تتاح العضوية لأحد إلا بعد التجربة والمراقبة(27).
- يضاف إلى هذه الشروط ما يتعلق بالجانب المالي وقد ذكر سابقا

وإذا استعرضنا الخلفية الاجتماعية لأفراد عصبة القسام الجهادية وحصيلتهم الثقافية والعلمية فإننا سنجد عدة مزايا انفردت بها العصبة جعلتها أقدر من غيرها من الأحزاب والأطر السياسية الموجودة في فلسطين آنذاك، على مخاطبة الغالبية العظمى من الشعب الفلسطيني باللغة المفهومة والواضحة، وبالتالي سنجدها الأكثر قدرة على استقطاب تعاطف الجماهير وحبها ومشاركتها في العمل(28).

وعلى خلاف أجنحة الحركة الوطنية الأخرى كان تنظيم القسام أول تنظيم فلسطيني يستقطب الفلاحين الفقراء والبدو(29). ومما يؤكد على هذا الاتجاه أن القيادة الأولى لحركة القسام التي تم تشكيلها سنة 1928 كانت من العمال والفلاحين(30)، والمهم بعد كل هذا أن تنظيم القسام استمر في عمله سرا ولم يكتشف أمره إلا سنة1935.

أما عن هيكلة التنظيم فهي كما يلي: يتكون التنظيم من خمس مجموعات وهي:

المجموعة الأولى: تعنى بالتدريب العسكري ثم القيام بالعمليات الجهادية يشرف عليها

ضابط تركي يدعى جلادت.

المجموعة الثانية: تعمل للإعداد للثورة ونشر الوعي بين الناس وتشرح أخطار المرحلة الراهنة على البلاد ويتولى قيادتها حسين حمادة.

المجموعة الثالثة :خاصة بشراء الأسلحة والذخائر يشرف عليها حسن البابر يساعده الشيخ نمر السعيد .

المجموعة الرابعة :مجموعة سياسية مهمتها الاتصال بالسياسيين العرب والفلسطينيين توكل للشيخ محمود سالم المخزومي.

المجموعة الخامسة : خاصة بالاستخبارات ومراقبة خطط الإنجليز واليهود كلف بها الشيخ ناجي أبو زيد[31].

رابعا: إعلان الثورة:

على الرغم من الآثار التي أحدثتها ثورة البراق لدى الفلسطينيين عامة، والقساميين خاصة بأن طلب من القسام الانتقال من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل[32]، غير أن القسام كان قد اهتم بتدريب المجاهدين والسعي لتسليحهم دون المشاركة في الهبة بدعوى أن البرنامج التوعوي لحركته لم ينتشر بشكل يضمن النجاح في هذه الهبة[33].

باستكمال التهيئة للجهاد وإعداد المقاتلين، ابتدأت عصبة القسام تنفيذ عمليات فدائية موجهة ضد المستوطنات اليهودية عن طريق إعداد كمائن والهجوم على أفراد محددين ومستوطنات معينة، بهدف دفع اليهود في الخارج لوقف هجرتهم إلى فلسطين ووقف التبرع للحركة الصهيونية وذلك في الفترة من 1931إلى 1932[34]،لعل أهم العمليات الفدائية، تلك العملية الجريئة التي نفذت في مستوطنة نهلال، وقد أثارت هذه العملية البريطانيين واليهود وأفقدتهم صوابهم، ففي ليلة 22 / 12 / 1932م انفجرت قنبلة في منزل في مستوطنة نهلال أدت إلى مقتل يهوديين وجرح اثنين آخرين[35].

وتأتي أهمية حادثة نهلال لقيمة المستوطنة عند اليهود، حيث اعتبرها وايزمان مستعمرة ذات قيمة سياحية كبيرة[36]، ومن تطور القدرة القتالية لدى عصبة القسام ثانياً، حيث استطاع العصبة القسامية صناعة القنابل التي بها فجرت المستعمرة[37].

وبالنظر لقسوة التحقيق وتشديد الرقابة اضطر القسام إلى توقيف العمليات إلى غاية 1935.

الخروج إلى الجهاد العلني :

قيل الكثير حول خروج القسام، قيل انه مجابهة انتحارية مع البوليس، قيل انه قرار خاطئ لأنه قبل الأوان، فالمتفق عليه كان من المفروض أن يتم بعد ستة أشهر من حدوثه[38]، وعليه يمكن تلخيص أهم دوافع إعلان الثورة بما يلي:

1 – ازدياد الهجرة اليهودية واتساع مساحة الأراضي التي استولى عليها اليهود.وفي ذلك يشير المندوب السامي البريطاني قبل نهاية 1935 إلى وزارة المستعمرات يقول : " إن خمس القرويين قد أصبحوا بالفعل دون أراض يملكونها، كما أن عدد العمال العاطلين في المدن آخذ في الازدياد"[39]

2 – وصول الحركة الوطنية الفلسطينية إلى حالة يرثى لها من الخلافات والمهاترات الحزبية، وبالذات بين أنصار المفتي الحاج أمين الحسيني، وأنصار راغب النشاشيبي[40]، ولم يكن بعد أحداث 1932 والاضطرابات التي حصلت فيها أي نضالات تذكر، وقد وصف عجاج نويهض وضع الحركة الوطنية قبل ثورة القسام في مقال نشره في 5 / 1/ 1936 نقلا عن كتاب حمودة سميح فقال فيها:« إن نار القومية ظلت سنتين طويلتين هاجعة، راقدة راكدة، مسلمة، مستسلمة للغاصب المحتل، تتلهى بالقشور والأعراض، وتدار بيد صاحب السلطان كما تدار الكرة بيد اللاعب، حتى اقسم القسام يمينه هو وإخوانه، وتقلد سلاحه ولقي وجه ربه في يعبد»[41].

3 – خشي القسام من اعتقاله أو اعتقال النخبة الصالحة من إخوانه بعد أن رأى شدة ملاحظة الإنجليز له ومراقبتهم لتحركاته. يقول إبراهيم الشيخ خليل نقلا عن كتاب حسن شراب مؤكداً هذا السبب:

«في أوائل 1935 رأى القائد أن المستعمر يراقب تحركات القساميين مراقبة دقيقة، وكان القائد يتحسس بأن المستعمر سيعتقل النخبة الصالحة من إخوانه ويفسد جميع مخططات الثورة قبل أن تظهر للمواطنين، وكان يرى الخروج للجبال والطواف بالقرى، وحث

المواطنين على شراء السلاح والاستعداد للثورة»[42].

4 – تهريب الأسلحة لليهود: وكان هذا العامل من اشد العوامل تأثيراً وتحفيزاً على إعلان الثورة، فقد تم اكتشاف عملية تهريب ضخمة للأسلحة الحديثة[43]،مرسلة لليهود عن طريق ميناء يافا، وكان هذا بتاريخ 16 / 10 / 1935، وقد أجمعت المصادر التاريخية على كون هذا الحادث من أقوى دوافع ثورة القسام[44].

وبينما كان السياسيون الفلسطينيون يكشفون عن مواقفهم المتساهلة الهزيلة نحو الحكومة حيث تشكلت لجنة موحدة للأحزاب في 21/ 10/1935، ضمت رؤساء الأحزاب.

وقابلت لجنة الأحزاب المندوب السامي وطالبته بسحب الأسلحة من المستوطنات اليهودية، ومواصلة التحقيق للقبض على المهربين وشركائهم، واتخاذ التدابير اللازمة لمنع إدخال السلاح في المستقبل، بالإضافة إلى إنشاء حاميات عربية لحراسة السواحل، ووقفت الأحزاب عند حد هذه المطالب وبقيت تنتظر رد المندوب السامي البريطاني عليها. وقد شنت الصحافة اليهودية حملة على هذه المطالب، واقترحت على الحكومة وضع حد للتحرك العربي الجديد. إلاّ أن ائتلاف الأحزاب وكل هذا التحرك العربي الذي أرعب اليهود لم يسفر سوى عن طلب مهين تقدمت به اللجنة من المندوب السامي بالسماح لها بإعلان الإضراب في فلسطين في 26 / 10 / 1935. ولكن المندوب رفض الطلب لتتوسع الهوة بين الجماهير الغاضبة وبين الزعامات المستكينة، فزادت حراجة مواقف الأحزاب أمام الجماهير بعد الرفض البريطاني للإضراب[45].

وجد الشيخ عز الدين القسام في حادثة التهريب وما حصل من غضب جماهيري عام، الفرصة الملائمة لإعلان الثورة ضد الإنجليز، وحين طرح الشيخ موضوع إعلان الثورة على أصدقائه المقربين أمثال رشيد الحاج إبراهيم، كان ردهم انه من الأفضل انتظار رد المندوب السامي على مطالب الأحزاب العربية بالنسبة لاكتشاف الأسلحة في يافا، إلاّ أن الشيخ رأى ضرورة عدم فقدان هذه الفرصة وانه يجب القيام فوراً بما من شأنه زعزعة الإنجليز واليهود سوية[46]،وقد خرج في خريف 1935[47]، وقد أرسل الشيخ القسام رسالة إلى الحاج أمين الحسيني بواسطة محمود سالم المخزومي قال له فيها: «الأمور لا

تطاق، واليهود يتسلحون، وقد أصبح الجهاد فرض وإعلانه فرض، وأنا سأقوم بإعلان الجهاد. وأنت عليك كرئيس للمجلس الإسلامي الأعلى وحسب إمكانياتك وميزانية الأوقاف أن تمدنا بثمن الأسلحة»[48]. ويذكر أبو إبراهيم الكبير نقلا عن كتاب عبد الله الطنطاوي :« أن جواب المفتي معروف ..لم يحن الوقت – بعد– لإعلان الجهاد»[49]، وحرص الشيخ القسام على الاتصال بالحاج أمين الحسيني كي لا يتحدث الناس، ولا يترك فرصة للشيطان فيتسلل إلى نفوس الناس فيزعم لهم إننا قصرنا في الاتصال بالقيادة وزعماء الشعب، وعلماء الدين، وأننا أردنا أن نستأثر بالجهاد ونجعله حكرا علينا[50]، ويذكر حمودة سميح نقلا عن البدوي أن الحاج أمين أرسل مبلغاً من المال للقسام، دون أن يبادر إلى إعلان الثورة في منطقة الوسط حيث كان نفوذه القوي[51].أما عدد الذين خرجوا معه فمختلف فيه غير أن الأكيد انه ليس أقل من عشرة فيكتفي عجاج نويهض بذكر عشرة فقط ويصل حمودة سميح إلى العدد ستة عشر[52].وهنا لابد من التساؤل عن قلة العدد هل لعجز من الشيخ في جلب الأنصار أم الخروج كان مفاجئا، ولكون حركة القسام سرية جدا فلم نجد تفسيرا لهذا الأمر من الوثائق المتاحة لدينا.

وصل الشيخ القسام وصحبه إلى خربة الشيخ زيد[53]،في التاسع عشر من نوفمبر 1935[54] وقد وصل إليها بعد رحلة شاقة ومتعبة لما شابها من حذر وترقب وتخوف من البوليس البريطاني الذي اكتشف أمر العصبة القسامية وبدأ يلاحقها ومقتفيا أثرها، وفي فجر العشرين من نوفمبر وصلت القوات البريطانية إلى يعبد وبعد صلاة الفجر من نفس اليوم انتقلت العصبة إلى أحراج يعبد وبادرت بإطلاق النار باتجاه فصيل من الشرطة، وكان ظن الشيخ أن هذا فصيل منفرد، ولكن تبين انه فصيل متقدم كشاف للطريق أمام قوة هائلة من الشرطة، ومع بداية إطلاق النار استطاعت الشرطة تحديد موقع إطلاق النار، فقامت بمحاصرة المكان وبدأت المعركة بينها وبين المجاهدين. وفي الساعة السادسة صباحاً تجول الكابتن «رايس» (نائب مدير الشرطة) مع احد أفراد المخابرات في الشمال فوق المنطقة داخل طائرة، وأعطوا الإشارات حول مكان المجاهدين.

وحين عرف الشيخ عز الدين القسام أن أفراد الشرطة يقتربون من مواقعهم أعطى

لإتباعه آمرين:

أ – عدم الخيانة حتى لا يكون دم الخائن مباحاً.

ب – عدم إطلاق النار بأي شكل من الأشكال على أفراد الشرطة العرب بل إطلاق النار باتجاه الإنجليز[55] .

اتخذت المعركة بين الطرفين شكل عراك متنقل، وساعدت كثافة الأشجار على تنقل أفراد الجماعة من موقع إلى آخر واستمرت حتى الساعة العاشرة صباحاً. وكان الشيخ عز الدين القسام من الفعالين في القتال، فقد حارب ببندقية ومسدس بالتناوب، في الوقت الذي كانت شفتاه تتفوهان بالدعاء. ورغم المقاومة الباسلة التي أبداها القسام ورفاقه، فقد كانت نتيجة المعركة استشهاده واثنان من رفاقه المجاهدين وهما: الشيخ يوسف الزيباوي وعطيفة المصري[56].

بعد انتهاء المعركة، تعمد قائد قوات البوليس مدير بوليس نابلس «فتسجيرالد» إهانة جثة الشهيد القسام، ويقال انه داس على رقبته ويقال أيضا أن احد الشرطة العرب ويدعي ميخائيل أبو الزلف، شتم القسام، والشهداء الآخرين وقال هذا جزاؤكم يا كلاب.

وقد أسفرت المعركة عن النتائج التالية :

قتل من الإنجليز الشرطي «ج. ر. س موت»، بعد إصابته بالرئة. وجرح شرطي آخر جاء لمساعدة«موت» بعد أن أصيب، ويدعى هذا الشرطي فرانك ريد وقد كانت إصابته في يده.

أما بالنسبة للمجاهدين فبالإضافة للشهداء الخمسة، فقد أصيب الشيخ نمر السعدي بثلاث رصاصات اثنتان كانتا في قلبه مما أدى إلى تدهور حالته.

وبعد هذه الأحداث لابد من الإشارة إلى أمور هامة ميزت كفاح عز الدين القسام، تتمثل في مواقف القيادة الفلسطينية من القسام وثورته.

خامسا: موقف القيادة الفلسطينية من القسام وثورته :

أثار وجود القسام في فلسطين مسالة العلاقة مع الحركة الوطنية إجمالا ومع الحاج أمين الحسيني خصوصا. لعدة اعتبارات، لكون الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى،

والقسام إماما بمسجد الاستقلال، وكذا مسالة العمل المسلح الذي طرحه القسام على الحسيني.ولكون الحسيني أصبح يمثل محور جذب لجل قيادات الحركة الوطنية، ولكونه يمثل اكبر الأسر الفلسطينية تأثيرا على الحياة العامة في فلسطين، لذلك كان لابد من التركيز في هذا البحث على موقف لحسيني من القسام وثورته مع الإشارة إلى بعض المواقف الأخرى، ولعل ما جعل القيادات السياسية تدعي ارتباط تنظيم القسام بها هو نبأ استشهاده والدور البطولي الذي قام به لأنهم لم يفكروا فيما قام به القسام من حركة جهادية، ولأنهم كانوا يظنون أن ليس في الميدان احد ينهج غير نهجهم[57].

يبدو من العريضة التي رفعت من قبل وجهاء حيفا للمندوب السامي سنة 1921، تطالبه بتعيين الحاج أمين الحسيني مفتيا للقدس، أن الشيخ القسام وهو أحد الموقعين عليها كان على معرفة بالحاج أمين الحسيني.كما أن حضور المفتي لاحتفالات ختام السنة الدراسية في مدرسة البرج الإسلامية دور في تعزيز العلاقة بينهما [58].

يذهب إميل الغوري إلى حد أن الحاج أمين كان متعاونا ومتفقا مع القسام على بدأ تنظيم حركته، وانه أمده بالمال باستمرار عن طريق الشيخ كامل القصاب، وتمكينا للقسام من العمل، وتسهيلا لمهمته، فقد عينه الحاج أمين مدرسا في جامع الاستقلال، ولم يقدم القسام على ثورته إلا بعد الاتفاق مع المفتي [59]. ويذهب الغوري إلى أكثر من ذلك حين يقول أن التنظيم السري تأسس في القدس بزعامة عبد القادر الحسيني أعطيت له الأوامر من طرف المفتي بضرورة التصادم مع بريطانيا[60] .كما أن الباحث اليهودي بوراث يذهب إلى أن المفتي أيد القسام ولو جزئيا، بشرط الحد الذي لا يتحدى فيه الانتداب[61].

أما الرأي المعارض لنظر الغوري فيمثله صبحي ياسين، الذي يقول : " أن القسام أرسل عام 1935 احد إخوانه محمود سالم إلى الحاج أمين ليعلمه عن عزمه القيام بثورة في فلسطين، وتم الاتصال بواسطة الشيخ موسى العز راوي، احد أعوان المفتي، واعلمه عن رغبة القسام وهي أن يشرع الحاج أمين في الإعداد للثورة في الجنوب، حيث يعد هو العدة في شمالها.فأجاب الحاج ...أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل، وان الجهود السياسية التي تبذل تكفي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم "[62].

وبعد عرض الرأيين يمكن ملاحظة الآتي :

من الخطأ اعتماد أدلة الغوري على اعتبار أن الحسيني ليس بحاجة إلى شهادة جديدة للتدليل على خطه الإصلاحي التقليدي، وعدم مراهنته على الثورة المسلحة، كخيار استراتيجي في النضال ضد الانتداب البريطاني والصهيونية، لأن تجربة الرجل كلها من عام 1920 إلى عام 1936 هي دليل نموذجي على ذلك[63] .

أليس إصرار الغوري على حسن علاقة القسام بالحسيني وإن كنا لا ننفي ذلك(حسن العلاقة)، هو تعويض ما نقص من تجربة المفتي، بتجربة ليس له شرف المساهمة أو دعمها؟

كما أن الغوري قام بمصادرة التنظيم السري القسامي ونسبه إلى الشهيد عبد القادر الحسيني كقائد جيش الجهاد المقدس عام 1937 والمعروف أن هذا التنظيم تأسس في عام 1947[64].

بناء على تقرير من احد المخبرين في حيفا مرفوع للوكالة اليهودية في القدس، فهناك من حاول فعلا تأسيس منظمة عسكرية تختلف عن منظمة القسام، وقام إميل الغوري وجمال الحسيني بزيارة لحيفا من أجل تدعيم هذه المنظمة وتأسيسها تحت شعار الكشافة وذلك في 1934[65] وإذا اعتمدنا هذا التقرير فمنظمة القسام تأسست قبل هذا التاريخ وكانت قد قامت بعمليات استشهادية منذ 1931.

لم تكن ردة فعل الحاج أمين ولا بقية الأحزاب لحادث تهريب الأسلحة مشابهة لردة فعل القسام، فبينما قرر القسام تفجير الثورة اكتفت الأحزاب بالاجتماع مع المندوب السامي وطلب الإضراب فقط، وعندما لم توافق سلطات الاحتلال قرر حزب الاستقلال القيام بالإضراب لوحده مع العلم انه كان خارج الإتلاف الذي التقى بالمندوب السامي، وما كان من بقية الأحزاب إلا المعارضة وعدم تأييد حزب الاستقلال .

وبعد الاستشهاد، لم يثر الحادث الحزب العربي ولا الحاج أمين الحسيني بالشكل المتوقع فيما لو كان القسام عضوا في الحزب أو لو كان المفتي موافقا على ثورته. وقد امتنع المفتي حتى عن إرسال برقية تعزية في الشهيد، ولم يشارك في الجنازة، كما أن الحزب العربي لم يمتنع عن الاجتماع بالمندوب السامي بعد الحادثة بأيام قليلة.

وقد انتقد أكرم زعيتر هذا الموقف فكتب في جريدة الجامعة الإسلامية موجها اللوم للأحزاب التي ستتقابل مع المندوب السامي وتكرر المطالب ولكن دون جدوى،ووجه لهم سؤالا: " ماذا ستقولون لجناب المندوب عن حادثة استشهاد القسام ...؟ ثم طالبهم بمصارحة المندوب بشعور الأمة وتلمسها للخطر " كما سأل القادة : " لماذا وقفت الأمة في موضوع استشهاد القسام في صف ووقفتم في صف آخر؟ لماذا لم تمشوا في موكب تشييع الشهداء؟ وتساءل أين برقيات وكلمات السادة أمين الحسيني، وراغب النشاشيبي، وعوني عبد الهادي، وحسين الخالدي[66] .

وبخصوص تعيين القسام مدرسا وخطيبا في مسجد الاستقلال بحيفا، فقد تم عن طريق الجمعية الإسلامية في مدينة حيفا وهي التي تشرف عن أوقاف المدينة بصورة مستقلة عن أوقاف القدس[67]. ونقلا عن كتاب حمودة سميح انه لدى مراجعة وثائق المجلس الإسلامي الأعلى والمحفوظة في أرشيف قسم إحياء التراث الإسلامي في القدس، يتبين ضعف علاقة الحاج أمين بإنشاء وإدارة المسجد مما ينفي أن يكون هو الذي عين القسام في الوظيفة[68].

ومما تجدر الإشارة إليه أن القسام رحب بالاكتشاف المتأخر لحزب الاستقلال والذي يرى أن التناقض الرئيسي هو بين الحركة الوطنية والانتداب البريطاني، لان هذا الاكتشاف قرب الاستقلاليين من المقولة القسامية في العشرينات "بريطانيا رأس الداء والبلاء" والثابت تاريخيا أن حزب الاستقلال حصر نفسه في مهمة فكرية واحدة وهي توجيه الأنظار ودفع الحركة الوطنية إلى الخطر الرئيسي وهو الانتداب البريطاني[69].

سادسا : الخاتمة

يمكن حصر نتائج الدراسة في النقاط التالي:

1- القسام جسد معنى القومية العربية على أرض الواقع من خلال نقله الجهاد من سوريا إلى فلسطين، مؤكدا على روح التعاون والاتحاد بين سوريا وفلسطين غيرها من أقطار بلاد الشام.

2- القسام أحيا روح الجهاد، بالانطلاق من المسجد وتربية الشباب على هذه الروح الجهادية، من خلال دروسه وخطبه التي ألقاها في مسجد الاستقلال.

3- اعتمد القسام على طابع السرية في تحركاته، وهذه صفة تتميز بها مختلف الحركات الثورية في بداية النشأة.

4- حاول القسام توثيق علاقاته بأكبر القيادات الفلسطينية لدعم ثورته، والوصول إلى هدفه وهو حرير البلاد.

5- أحدثت ثورته واستشهاده فيما بعد شعورا بخيبة الأمل لدى كثير من الفلسطينيين، كما أحرجت عديد القيادات السياسية الفلسطينية، مما دفعها فيما بعد إلى دعم الثورة الفلسطينية الكبرى سنة 1936-1939.

6- على الرغم من محاولة بعض الأحزاب تبني القسام وثورته إلا أن الثابت هو عدم انتماء القسام على أي من تلك الأحزاب.

ـ الهوامش:

(1) محسن محمد صالح، التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد1917-1948، ط2، كتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، ص 231.

(2) حمودة سميح، الوعي والثورة، دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام، المتوفر على الموقع : www.asnanaka.com/17.05.2009 [ملف وورد].

(3) علي حسين خلف، تجربة الشيخ عز الدين القسام، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، ط.1 .عمان. 1984، ص.11.

(4) صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين 1936-1939،دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967، ص30.

(5) علي حسين خلف، مرجع سابق، ص10.

(6) حمودة سميح، مرجع سابق.

(7) يذكر علي حسين خلف إن مدة دراسته دامت ثماني سنوات لأنه نال شهادة الأهلية التي تتطلب هذا الحجم الزمني نفسه

(8) علي حسين خلف، المرجع سابق، ص.13.

(9) يذكر الباحث اليهودي يهوشع بوراث أن القسام ربما وقع تحت تأثير رشيد رضا الذي انشأ مدرسة خاصة به خارج الأزهر «مدرسة الجهاد»، لان أفكاره وتطلعاته شبيهة إلى حد كبير برشيد رضا. وفي عام 1902 نشر رشيد رضا مقالات في مجلته «المنار» يحذر فيها من خطة الصهيونية الهادفة إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين. ومن هذه المقالات وبسبب قرب القسام من رشيد رضا يمكن القول بمعرفته عن الصهيونية في

مرحلة دراسته في الأزهر.يرجع إلى كتاب حمودة سميح، الوعي والثورة، دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام، مرجع سابق

(10) حمودة سميح، مرجع سابق .

(11) محسن محمد صالح، التيار الإسلامي في فلسطين، مرجع سابق، ص 231.

(12) نفسه.

(13) عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث،ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1970، ص.292.

(14) بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917–1948، ط3، مؤسسة الدراسات الفلسطينية،بيروت، 1986، ص.319.،ويرجع إلى كتاب عادل حسن غنيم، الحركة الوطنية الفلسطينية من 1917إلى 1936، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1974، ص.294.

(15) حمودة سميح، الوعي والثورة، مرجع سابق .

(16) محمد محمد حسن شراب، عز الدين القسام، شيخ المجاهدين في فلسطين، دار القلم ط.1، دمشق، 2000، ص.123 وما يليها .

(17) حمودة سميح، مرجع سابق .

(18) نفسه .

(19) القضية الفلسطينية من منظور إسلامي *www.jamaaway.org* 2005/04/22

(20) حمودة سميح، مرجع سابق .

(21) نفسه .

(22) ياسين صبحي، الثورة العربية الكبرى، في فلسطين، دار الكتاب العربي، بيروت 1967، ص .31.

(23) حمودة سميح، مرجع سابق .

(24) محمد محمد، حسن شراب، مرجع سابق، ص. 233.

(25) عجاج نويهض، رجال من فلسطين، من بداية القرن حتى عام 1948، منشورات فلسطين المحتلة، ط.1، بيروت، 1981، ص 110.

(26) بيان نويهض الحوت، القيادات، مرجع سابق، ص.323.

(27) محمد محمد حسن شراب، مرجع سابق، ص.ص.232–233.

(28) حمودة سميح، مرجع سابق .

(29) علي حسين خلف، مرجع سابق، ص.53.

(30) محمد محمد حسن شراب، مرجع سابق، ص.237.

(31) عبد الله الطنطاوي، الوادي الأحمر صفحات خالدات من سيرة الإمام عز الدين القسام، دار القلم، ط.1، دمشق، 2004، ص.ص.125–128.

(32)حمود سميح، مرجع سابق .
(33) نفسه.
(34) نفسه .
(35) صبحي ياسين، مرجع سابق،ص38.
(36) بيان نويهض الحوت، القيادات، مرجع سابق، ص.ص.324–325.
(37) حمودة سميح، مرجع سابق.
(38) نفسه، ص.326.
(39) محمد محمد حسن شراب، مرجع سابق، ص.272 .
(40) ناجي علوش، المقاومة العربية في فلسطين 1917–1948، مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1967، ص.89وما يليها .
(41) حمودة سميح، مرجع سابق .
(42) محمد محمد حسن شراب، مرجع سابق، ص.271 .
(43) السفينة «ليو بولد الثاني» والتي رست في ميناء يافا في 16 / أكتوبر 1935، والتي كانت تحمل بضاعة قيل أنها 537 برميلاً من الاسمنت، لم تكن في حقيقتها سوى إحدى الوسائل التي استعملها اليهود لتهريب السلاح إلى فلسطين. وتبين أثناء إنزال الاسمنت البلجيكي!! المرسل من بلجيكا الى المدعو أ. كاتان من تل أبيب، أن البراميل تحوي كمية قليلة من الاسمنت تشكل غطاء تمويهيا لآلاف المسدسات والبنادق، وعشرات الرشاشات والكميات الهائلة من الرصاص.
(44) محمد محمد حسن شراب،مرجع سابق، ص.272 .
(45) حمودة سميح، مرجع سابق.
(46) نفسه.
(47) اختلفت المراجع التاريخية في تحديد تاريخ خروج القسام من حيفا في 12 / 11 /1935، و في 7/ 11 / 1935، وفي منتصف شهر أكتوبر .
(48) حمودة سميح، مرجع سابق.
(49) عبد الله الطنطاوي، الوادي الأحمر، مرجع سابق، 165.
(50) نفسه، 166.
(51) حمودة سميح، مرجع سابق .
(52) ينظر عجاج نويهض، مرجع سابق، ص.114 .ويرجع أيضا إلى حمودة سميح، مرجع سابق .
(53) هكذا وردت في المراجع المشرقية ولعل المقصود بها عندنا قرية، وهي تقع في الجهة الشمالية لمنطقة يعبد
(54) محمد محمد حسن شراب، مرجع سابق، ص.293.

(55) حمودة سميح، الوعي والثورة، مرجع سابق .

(56) للإطلاع على أخبار المعركة يرجع إلى كتاب حمودة سميح، وكتاب محمد محمد حسن شراب .

(57) محمد محمد حسن شراب، مرجع سابق، ص.259.

(58) حمودة سميح، الوعي والثورة،مرجع سابق .

(59) إبراهيم أبو شقرا، الحاج أمين الحسيني، مرجع سابق، 220.

(60) حمودة سميح، مرجع سابق .

(61) Porathe ,the Palestine e Arab national mouvement 1929-1939,London 1977,p 138

(62) صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين، مرجع سابق، ص.32.

(63) علي حسين خلف، مرجع سابق، ص.61.

(64) نفسه، ص.62.

(65) حمودة سميح، مرجع سابق .

(66) نفسه .

(67) علي حسين خلف، مرجع سابق، ص.47.

(68) حمودة سميح، مرجع سابق،و يرجع إلى نص رسالة المجلس الإسلامي الأعلى (وثيقة حول تأسيس جامع الاستقلال) إلى حضرة رئيس لجنة عمارة جامع الاستقلال المؤرخة في 20سبتمبر 1923، ويرجع أيضا إلى نص رسالة الجمعية الإسلامية بحيفا حول نفس المسألة إلى المجلس الإسلامي الأعلى في الملحق رقم 11-12-13-14

(69) علي حسين خلف، مرجع سابق، ص.44.